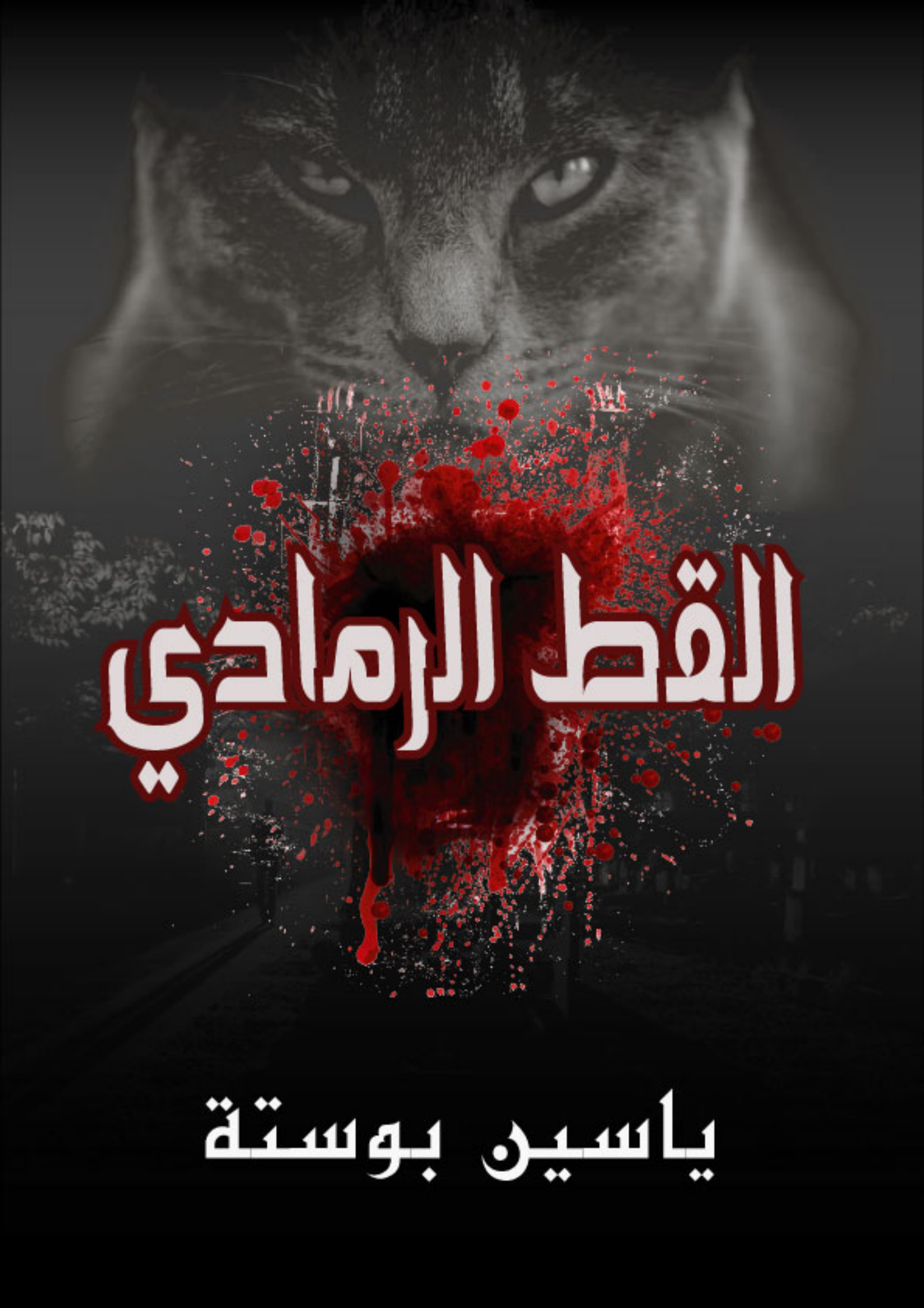




القط الرمادي

ياسين بوستة

قبل أن تهم بقتل أحد انتبه جيدا لعلك تجد **قطا**
رماديا بجانبه فان وجدته هناك فاركض بأقصى
قوتك **مبتعدا**

في قريةٍ بسيطةٍ من قرى فاس المدينة المغربية العريقة، نرى الحاج عبدالله العجوز الأصلع ذو الوجه البرئ متجهاً لصلاة العشاء كعادته، ومن خلفه نرى قطه الرمادي المفضل يسير بخطواتٍ سريعةٍ ليلحق بالعجوز.

عاش الحاج عبد الله حياته وحيداً بدون عائلةٍ او اولاد، كل حياته مرت بين عينيه ما بين العمل والبيت والمسجد، والآن أصبحت عادته التي ما برح عنها يوماً، هي الذهاب و الإياب من المسجد او اليه. لم يكن يبدد مله المسيطر على حياته الا قنوته في المسجد تارة، وحديثه مع قطه المفضل تارةً اخرى، انه يكلمه و يبوح له بكل أحاسيسه و آلامه و بكل ما يجول خاطره من أفكار وكأنه فردٌ من عائلته التي لم يحظى بها قط. كان يحبه حبا جما، لدرجة أنه يحزن كل الحزن كلما تأخر قطه خارجاً، كأنه يكره أن تفوته وجبة السردين

الطري التي يحضرها له في كل موعد عشاء.
 بالمناسبة قطه الرمادي اعطاه اسما مميزا، لقد
 اسماه "محسن"، قد يجول بخاطرک الآن سؤال و
 هو لماذا اختار هذا الاسم بالذات؟ ان هذا الاسم
 كان محببا إلى قلب الحاج عبد الله و كان يأمل ان
 يسمى اول ابن له بهذا الاسم، ولكن شاءت
 الاقدار ان يستولي الزمن على أيام عمره البائسة
 دون ان يحظى بابن او عائلة، فارتأى ان يمنح شرف
 هذا الاسم المحبب لقطه الوحيد..

نرى الآن الحاج عبد الله يخرج من المسجد
 وهو يتمتم بكلماتٍ.. أظن انها اذکار الخروج من
 المسجد فهذه عادته كل يوم. يسير الآن في ثبات
 بعد أن ارتدى حذاءه القديم المليء بالثقوب، و
 الأذکار لا تفارق شفاهه، والقط الجميل يسير
 خلفه بأمان مستهديا بخطواته..

في ذلك الزقاق الضيق المؤدي لساحة القرية،
 نرى ثلاثة شباب في مقتبل العمر يحملون قنيناتٍ

خضراء تظهر من الوهلة الاولى انها قنينات مشروب غازي عادي، ولكن ما أن تقترب الصورة حتى تتبين لك ماهيتها الحقيقية، انها قنينات خمر رخيص، يتبادلونها فيما بينهم و هم يلقون نكاتا قبيحة ويضحكون بهستيرية وراء كل نكتة.. انهم عمر وحامد وحسن .. انهم أكثر اهل القرية اجراما و يتفاداهم الجميع خوفا من بطشهم.

يمر العجوز أمامهم بغير اكتراث.. ولكن قد نراه نحن عجوزاً عادياً، أما هؤلاء الثلاثة فيرونه بنك الدولة، فبالرغم من أن هيأته توحى بالفقر الشديد إلا أنه قد يوفر لهم على الأقل ثمن قنينة خمر أخرى بعد الاستيلاء على كل ما يملك.

لا بد أن هؤلاء الحمقى لا يفرقون بين غني او فقير لا يمر أحد من أمامهم إلا بعد أن تسلب منه كل ممتلكاته بالغصب او بالطواعية.

- ما بال الحاج لم يلقي السلام هل يرانا كفارا ؟
قالها حسن زعيم المجموعة بسخرية و هو يوجه الكلام بحدة للعجوز.

- أظن أن الحاج قد نسي الآداب في المسجد.
نطقها عمر وأردفها بضحكات عالية.
- يا أيها العجوز الأصلع ألم تعد تسمع أم ماذا ؟
- جاء هذا النداء من حامد الذي كان يجلس بعيد عن الإثنين.
- التفت العجوز الى الثلاثة والأذكار ما زالت تتردد بين شفثيه .. سكت هنيهة ثم قال بصوت ضعيف :
- عيب عليكم يا أولادي أن تتكلموا بهذا الأسلوب مع شخص في سن أجدادكم.
- ضحك الجميع ضحكة سخرية تجاه كلامه و نطق حسن ومفعول الضحك ما زال باديا على لهجة كلامه.
- كان لدي جد وحيد و قد صيرته قعيدا بعد ان اقحمت سكينى هذه في عموده الفقري و هذا

كله لأنه امتنع عن إعطائي دراجته النارية
لأبيعتها.

كان يريد ان يمنعني من بيع الدراجة فلم يعد
لديه لا دراجة ولا حتى رجلين.

نظر الاثنان الآخران الى حسن و بدأوا بالضحك
كأنهم يعلمون هذه القصة سلفا.

قال حامد و هو يقترب من العجوز :

- يا حاج هات ما عندك بدون محاورة في الكلام
إن أردت أن ترجع لبيتك الكئيب سالما.

- يا ولدي ليس عندي شيء لأعطيك إياه و لو
كان عندي شيء فلن اعطيه لك.

هذا الجواب الأخير الذي أعطاه العجوز يذكرني
بمقولة ساخرة لرئيس الحكومة المغربي بنكيران
حين قال :

« حنا معندنا فلوس منعطيوكم و كون كانو
عندنا مغاديش نعطيوهم ليكم »

غضب حامد و هو يستشعر نبرة التحدي في كلام العجوز فلطمه على وجهه غير مكترث لعمره الوقور.

وقع العجوز أرضا من إثر الضربة ، فحمله حامد مرة اخرى و أوقفه أمام حسن الذي قال :

- انظر يا عجوز إن حامد كان لطيفا معك حين لطمك تلك اللطمة الخفيفة، أما أنا فقد أغرس سكين في أحشاءك و أرميها للكلاب كي تكون لها عشاء لذيذا، و بعدها أذهب لأغط في سبات عميق كأن شيء لم يكن، فالأفضل لك أن تخرج ما في جيبك من أموال و تذهب في حال سبيلك .. اتفقنا ؟

- يا ولدي لقد قلت لك إنه ليس لدي ما أعطيك إياه صدقني؟

- يا حاج أرجوك أعطه ما لديك فحسن ليس من عادته أن يمزح.

قالها عمر بصوت تشوبه نبرة الاستعطاف ..
عمر الذي ضل ساكتا أثناء الشجار و كأنه
يتحاشى إصابة العجوز بأذى.

- لقد قلت لكم ما لدي يا ولدي فافعلوا ما بدا
لكم .. هناك مية واحدة للمرء.

بدأ الغضب يزداد في نفسية حسن الذي كان
معروفا بسرعة الغضب و خصوصا و هو يرى ان
العجوز يتحداه بكلامه هذا، فلم يشعر بنفسه إلا
و هو يخرج سكينه من جيبه و يطعن العجوز في
بطنه ثلاث طعنات متتالية دون رحمة أو تأنيب
ضمير و كأنه يطعن كيس قماش بال.

وقع العجوز أرضاً سابحاً في دمائه، فصرخ عمر في
وجه حسن :

- ماذا فعلت يا احمق؟ هل جنت؟ لقد قتلت
العجوز البريء لا بد أنه فقير وليس لديه ما
يعطيك اياه .. ألا ترى ثيابه البالية.
- ستصمت او ستكون أن التالي.

قالها حسن بنبرة حادة ومعالم الخوف الممزوج
بالغضب تلون وجهه.

- احمليه وخذوه بعيداً او ارموا جثته بجانب
أقرب قمامة، لا أريد أن أراها.

أذعن الإثنان لكلام حسن فهو زعيمهم، و ساروا
بعيدا بجثة العجوز..

بينما هم يبعدونها عن أنظار حسن، نرى خيالاً
لمخلوق صغير يتبع الاثنين بترقب.. انه خيال قط..

في بيتٍ خرب تحيطه الكلاب نرى حسن جالساً
وأمامه قطعة حشيش وفي يده اليمنى سكينه
الذي لا يفارقه وهو يقوم بتقطيع قليل من
الحشيش ليعد صاروخاً صغيراً يحرق به رثتيه
اللتين اسودتا مع الزمن.

فجأةً سمع خير ماءٍ يأتي من ذلك الحمام
المقرف.. حمام منزله، اقترب ببطء للحمام ليرى
مصدر الصوت، بدأ يقترب رويداً رويداً والصوت
يزيد حدة، الى حين وقوفه أمام المرأة المهشم

نصفها، فتوقف الصوت فجأة. وساد الصمت..
صمتٌ مريب.. بدأت كتابةً تظهر على المرأة بلونٍ
أحمرٍ دمي ..

"كي تكون مستعدا للقتل يجب ان تعرف معناه"
بدأ حسن يفكر في هذه الكلمات ويحاول
تفسيرها. لم يوقف تفكيره إلا شعوره بسلك غير
مرئي يمر من رقبته افقياً. وبسرعةٍ خاطفة. فعلم
أن ضعيفاً قد حل سريعاً على حياته البائسة.. انه
الموت .. ضعيف قبيح.

نعلم الآن انه كي تكون مستعدا للقتل يجب ان
تموت أولاً..

جثة مرمية على أرض حمامٍ عفن.. والدماغ تخرج
من رقبته غزيرة.. وقط يلحق بنهم اطرافه
المليئة بالدماغ.. قط رمادي.

* * * * *

نحن الآن في يوم الجمعة أصوات المارة تعلو
ويشوبها صوت الإمام وهو يتلو مقدمته
المشهورة

ان الحمد لله نحمده ونستعينه و نستغفره...
واضح انه يوم الجمعة، أناسٌ يهرولون
محاولين اللحاق بالصفوف الأولى بعد سماعهم
لصوت الامام يخطب وآخرون يمشون ببطءٍ
وسكينة.

بعيداً عن هذه الأجواء نرى حامد يمسك
قنينة خمرٍ من النوع الرخيص، الذي لم يذق غيره
في حياته التعيسة، يشرب بنهم كأنه يحاول أن
ينسى شيئاً، نعم أعلم.. إنه يحاول أن ينسى ذلك
الحلم الذي ما فتئ يراوده في الأيام السابقة.. و
بالتحديد بعد موت العجوز الذي قتله حسن..
يشرب ويشرب.. ولكن الأفكار عالقة في مخيلته،
إن نهاية الحلم تكون دائماً بموته بعد صراعٍ طويلٍ
مع مخلوقٍ لا يراه، ولكن كان يسمع عبارةً واحدةً
تتردد في الحلم مرارا و تكرارا كأن أحدا يوبخه بتلك
الكلمات : " اليد التي تلطم كالتى تقتل".
فيستيقظ بعدها في فزع..
هكذا كان الحلم دائما.. حلم مخيف.

انتهت القنينة الاولى، فحمل القنينة الثانية الموضوعه أمامه.. الأفكار ما زالت تدور في مخيلته، الموت يطارده في الحلم وفي مخيلته. رشف رشفةً اخرى من القنينة.. مهلا!!؟. قالها و كأنه يحاور نفسه.

- انا اشتريت قنينة خمرٍ واحدةٍ هذا اليوم.. لا يمكن..! من اين انت القنينة الثانية؟ قالها وهو ينظر باستغراب للقنينة التي يمسكها بيده، ولكن فجأةً فقد السيطرة على جسده. وبدأت يده تقرب القنينة منه، فتح فمه بدون مقاومة، وبدأ يرشف ما بقي في القنينة حتى أتى على آخرها. ألمٌ يمزق أحشائه.. ثم دوار انتهى بسقوطه أرضاً وبجانبه كانت هناك قنينة خمرٍ واحدة، وقط رمادي يلحق فمه في غل.

* * * * *

يقف عمر على سطح منزله ناظراً للقرية من أعلى، وهو يفكر في أحداث تلك الليلة المشؤومة التي شارك فيها دون قصدٍ في قتل عجوزٍ بريء، إن

ضميره يؤنبه، العجيب في الأمر أن واحداً من أكبر مجرمي هذه القرية لديه ضمير.. نعم لديه ضمير .. بل ويؤنبه أيضاً.

المهم انه وقف متأملاً في الأحداث التي تدور داخل عقله، سكين.. لطم.. عجوز بريء.. طعنة بدون رحمة.. أفكار تمر سريعاً بين طيات أفكار أخرى من أحداثٍ مضت، لم يرغب في أن يتفكر فيها. وفي خضم كل هذه التأملات، لم يلاحظ عمر أن قدميه تتجه بخطى ثابتة نحو الحافة.. حافة السطح، كأن جسده يحاول الإنتحار. وفجأة هوى جسده من فوق المنزل المكون من ثلاثة طوابق. والعجيب في هذا كله أن عمر لم يلاحظ كل هذا وكأنه مخدر أو أنه في عالمٍ ثاني.. إن آخر ما سمعه في أذنيه هي تلك العبارة الجامدة :

"كنت أريد إعطاءك السماح ولكن نفسي أبت ذلك."

صراخ يأتي من بعيد .. إنه صراخ المارة الذين هرولوا إلى جثة الشاب المرمي على الأرض و

ساقيه مهشمتين. وكأنه لا يتوفر على عظم فيها. والدم يخرج من فمه ورأسه، اقترب رجلٌ في الثلاثينيات الى الجثة.. بعدما قال أنه طبيب.. فقال بعد أن فحص الجثة أن صاحبها ما زال حياً ولكنه فاقد الوعي، و المؤسف في الأمر أنه لن يستطيع المشي على قدميه مرةً اخرى.

تعالّت أصوات الجمع الغفير بين دعاءٍ وحقلة، لكن من بين الجمع خرج قطٌ رمادي و سار ببطء مبتعدا عنهم. وشبح ابتسامةٍ بادية على فمه، هل عادةً القطط تبتسم؟ ام أننا نتوهم؟.. سار القط و الابتسامة ما زالت تعلو وجهه المزغب حتى وصل وجهته، كان واقفاً أمام قبرٍ عادي.. لكن انتبه إلى اسم صاحب القبر المكتوب على لوح إسمنتي بجانب اللحد :

« هنا يرقد الحاجّ عبد الله الزموري »

نعم هذا قبر العجوز المقتول، قد دفنه اهل القرية بعد أن وجدوه جثة هامدة مرميا بجانب أكياس القمامة. اقترب القط من القبر ونام فوقه

براحةٍ تامة.. كأن أحدا يحتضنه، ومن عينيه نزلت
قطرة دمع حارقة.. هل القشط تبكي؟ لا أدري..
ولكن كل ما أعلمه أن هذا القط الرمادي هو
محسن.. قط العجوز المفضل .. وهو بكل تأكيدٍ
ليس قطاً عادياً.

تمت بحمد الله